

الفصل الثالث

صفات المؤرخ

يحلو للكثيرين من المثقفين الكتابة في التاريخ ، والفوضى في أعماقه ، وهذا أمر محمود ، ولكنه لا يعنى أن كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا بل لابد أن يتوافر فيمن يكتب التاريخ من الصفات والاستعدادات والظروف ما يجعله قادرا على ذلك العمل وأهم الصفات التي يجب توافرها في المؤرخ هي :

١ - أن يكون أميناً في عرض الموضوع ، صلباً في اظهار الحقيقة اينما وجدت ، حازماً شجاعاً في التعبير عن رايه مخلصاً في عمله ، موضوعياً لا يتملق أحداً ، ولا يتحامل على أحد دون وجه حق ، ولا يجامل ولا ينحيز أو يداهن أو يسلك مسلك الدعاية لأحد ، بل يكون هدفه الأساسى اظهار الوقائع والحقائق التي تتوفر لديه ودراستها وتحليلها وتفسير بواعثها - بغرض الوصول الى جوهر الحقيقة التاريخية وحدها اذ لا يوجد رقيب عليه غير ضميره اليقظ ، وخاصة ان تاريخاً تملبه الاهواء لا يعدو أن يكون صحيفة تدليس ، وليس شيء أكثر افساداً للتاريخ من التدليس فيه . وأن من يحرف نصاً أو ينسبه لغير صاحبه أو يقوم باستخراج ما يلائم هواه أو غرضه منه لمسانده حاكم ، أو الخوف من ظلم يقع عليه يدخل في زمرة من يخلط الصواب بالخطأ ولا يدخل في عداد المؤرخين فالتناس في حاجة الى معرفة الحق أكثر من حاجتهم الى غوغائى أو منافق يكذب عليهم ، كما أن التاريخ ليس اسطورة لامتناع النفوس ، ولا قصص حكايات ، أو رواية روايات ولا هو طرائف ينتدر بها بين الناس ، بل هو الحقيقة بطوها ومرها ، كما أن دراسته تقتضى الموضوعية المجردة البعيدة عن المبالغة والتحيز ، فليس من المنطقي أن يفض المؤرخ الطرف عن حقيقة معينة مجاملة لأحد من الناس اذا كانت الشواهد تدعها أو الوثائق تؤيدها ولا أن يلبس أحداً

ثوبا من نسيج خياله وهو فى الحقيقة ليس له ، وخاصة ان اساس التاريخ هو الصدق ، وكل مؤرخ يكتبه او يطوى بعضه او يدخل فيه مالا يعتقد فى صحته هو غير جدير بالثقة ، ومثله كمثل المصور الذى يحرص على اخفاء عيوب من يصوره ، واذا كان ذلك جائزا لدى الرسام او المصور او الصحفي فهو غير جائز للمؤرخ .

٢ — ان يكون محبا للدرس جلدا صبورا ، متجشما للصعاب لاستجلاء الجوانب الغامضة وما اغفلته المصادر ، وان يكون مخلصا فى رسالته يتحرى مصادر التاريخ ووثائقه عن هواية ورغبة وطموح وحب للتحصيل لا تمنعه المصاعب او تبعده مصالحه الخاصة عن مزاولة عمله ، بل يجب ان يهب نفسه للدراسة التاريخية ، ويقوم بترميم ماضى الانسانية فى صمت بقدر استطاعته ، ويفنى ذاته من اجل البحث عن الحقيقة بتهمل ودون تعجل وخاصة ان كتابة البحوث ليست بالامر الهين بل هى فى حاجة الى جلد ومثابرة ، وفحص وتحليل دقيقين لسجلات الماضى ومخلفاته او ما يطلق عليه المنهج التاريخى *Historical Method* كما انها تتطلب التعامش مع الموضوع كله ومع اجزائه كى يتمكن الباحث من تأسيس احكامه بطريقة سليمة .

٣ — ان تتوفر لديه ملكة النقد والتحليل والفحص والاستقراء والقدرة على الموازنة والمقارنة بين المصادر وان يكون ذا عقل واع واثق واسع وفكر منظم لا يصدق كل ما يقرأه او يسمعه ، ولا يقبله على انه مسلمات بل عليه ان يستقرىء الحوادث ويرتبها ويربط بينها بغير ان تختلط الحوادث اذ له او يطفى على عمله أسلوب السرد او النقل والاقتباس من الآخرين ، وان يبتعد عن السجع والالفاظ الغريبة والمعانى المبتذلة التى تستعمل للزينة ، وان ينشئ ضلته فى مصادرها ومظان وجودها . ومن لا يتصف بهذه الامور لن يستطيع ان يميز بين الصحيح وغيره ، ولا يستطيع الحكم على ما بين يديه ، ولا يزيد ما يكتبه على كونه مجرد معلومات موضوعية بين دفاف كتب غير جديرة باسماء اصحابها ، وخاصة ان القدرة على الابداع والتنسيق بين الافكار فى أسلوب علمى سليم ، وتعبير واضح هو قوام البحث وعموده ، كما ان استخدام التعبيرات والمصطلحات او الاسماء

الخاصة بأهل المنطقة أو الدولة موضوع الدراسة ضرورة هامة في كتابة البحث .

٤ — أن يتسم فكر المؤلف بالذوق والتسامح وسعة الأفق والعقلية المتفتحة الواعية ، وأن يميز بين المعارف والحقائق ، وأن تكون الحياة كلها خامة غنية لكتاباتهِ وأن يفهم بقدر المستطاع الدوافع التي حركت أحوال الأمم والقادة ويستوعب الأمور التي دفعتهم لاتخاذ سلوك معين من واقع أحوالهم ، ولا يجزم بأمر من الأمور اذا كان ذلك الأمر يحتمل قولين ، بل عليه الاحتياط في القول .

٥ — أن يتميز برحابة الصدر ، وتقبل ما يعرف من آراء مخالفيه تحرياً للحقيقة ايا كان مصدرها وقبولاً للحق ممن أتى به ايا كان شأنه .

٦ — أن تكون لديه الخبرة الكافية التي تجعله أقدر على فهم أعمال الانسان في الزمن الماضي ، وتقدير الظروف التي أحاطت به ، والتي أدت الى اتخاذه مسالك معينة في مواجهة تيارات أو مؤثرات محددة ، وهذا يعنى ضرورة معرفته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تتصل بالعصر الذى يؤرخ له ، والمقارنة بينه وبين العصر الذى يعيشه .

٧ — أن يكون مفرماً بالارتحال والسفر خارج وطنه وداخله في سبيل البحث التاريخي حتى تتفتح أمامه الأفاسق ويتعرف على خبرات الآخرين ، ويستطيع مشاهدة مواقع الأحداث التي يتعرض لها عن قرب .

٨ — ألا يتأثر في كتاباته بالمؤثرات الحزبية والسياسية أو بما يعتنق من نظريات وقيم جمالية وأخلاقية وسياسية أو بالظروف الاجتماعية ، والطابع الشخصي بقدر المستطاع فالمؤرخ الذى يتميز بالأمانة الفكرية وأن كان ينتمى الى حزب معين أو الى وطن معين أو الى طبقة معينة يستطيع أن يحجب ميوله الكامنة حتى يبلغ اكبر درجة من عدم التحيز ، فإذا قام بتحليل وثيقة أو نص معين فعليه أن يحمل في ذهنه سؤالاً أو مجموعة من الأسئلة توصله الى الحقيقة دون أن يربط نفسه باتجاه معين ومع أننا لا نتكر أن من العسير أن يتجرد المؤرخ من ذاته أو لعواطفه الوطنية

أو لطبقته الاجتماعية أو للجو الحضارى الذى عاش فيه ، غاننا نرى أن الاقتراب من الموضوعية ، وتمكن المؤرخ من تقمص شخصية موضوعه ، والبعد عن كل اغتراض سابق ، والالتزام بمنهج البحث العالمى الصحيح ، كل هذا يفرق بين المؤرخ الجيد وغيره ، ويجعل دراسته أكثر علمية وموضوعية .

٩ - الا ينصب المؤرخ نفسه قاضيا يعيد محاكمة الأشخاص الذين سبق أن صدرت عليهم أحكام معاصريهم ويوزع أحكام الاستحسان أو الاستهجان هنا وهناك وخاصة أن العدالة فى الأحكام التاريخية لا تتحقق بسهولة ، كما أن هذه الطريقة يمكن أن تقلب الدراسات التاريخية إلى أسلوب من أساليب الدعاية^(١) .

١٠ - أن يكون لما ببعض اللغات لتعينه على تفهم الموضوعات التاريخية التى تدخل ضمن نطاق تخصصه ، وفتح أمامه آفاق البحث ، والاستقصاء ، والمقارنة .

١١ - أن يكون واسع الثقافة ، لما بأحداث مجتمعه ، متفهما للمدارس التاريخية المختلفة ، وعارفا بالعلوم المساعدة التى تعينه على تفهم دراسة التاريخ وكتابته ، ولا يكتفى بترديد آراء السلف بل يجب أن يضيف إليها .

١٢ - أن يكون متواضعا ، ولا يدعى المعرفة بكل شيء بل يرجع إلى مصادره كلما التبس عليه الأمر للتحقق من معلوماته ، ويعيد النظر فيما كتبه كلما عن له جديد أو ظهر شيء فى كتاباته يستحق إعادة النظر ، فينقد ما كتبه ويصحح ما يجده فى حاجة إلى تصحيح ، وقد فعل ذلك المؤرخ الانجليزى « أرنولد توينبى » فنقد كتابه الضخم *Study OF History* الذى أتمه فى عشرة مجلدات فى كتاب أسماه « إعادة النظر *Reconsideration* » وأطرف ما فى هذا الكتاب أن نقد توينبى لنفسه كان أقسى من أسلوب الناقد الغريب وخاصة أن المؤرخ أعرف بما يكتبه .

للتفاصيل انظر :

من غيره ، قد قام توينبى باثبات عن أخطائه في صراحة وشجاعة فريدة ونجح في ذلك أيما نجاح . وجملة مأخذه على نفسه انه أخطأ في اعتباره الحضارة اليونانية أساسا للحكم في سائر الحضارات ، ولاحظ بعد إعادة النظر فيما كتبه انه كان شديد الميل الى التعميم والتوسع في تطبيق الأحكام الشاملة ، وأنه أعطى الأساطير التاريخية من العناية أكثر مما ينبغي . ومع ذلك فان نقده لنفسه لم يقل في نظر الآخرين من قيمة عمله ، بل زاده علوا وارتفاعا وخاصة أن كل ما فعله كان إخلاص النظر ، وإخلاص التطبيق فيما كتبه .

١٣ - ان يهتم المؤرخ بالإشارة الى مصادر بحثه في الحواشي حتى يتمكن الآخرون من فحص ما توصل اليه من نتائج والتعرف على الكيفية التي استطاع بواسطتها الحصول على المعلومات التي دونها ، فالمصدر يعد بمثابة شاهد ، تسند اليه المعلومات التي تتم الإشارة إليها .

١٤ - ان يبتعد المؤرخ عن الخيال لأنه ليس من المنطقي أن يتصور أشياء لم تحدث ، ولكن اذا كان ذلك الخيال مرتبطا بالواقع فانه بعد عنصرا ذاتيا أولا وآخرا وخاصة انه يمثل دائما ماضى المجتمعات الانسانية في ضوء ما يعرفه عن الطبيعة الانسانية .

١٥ - الا ينحصر عمل المؤرخ في سرد أحداث الماضي بل لابد له من اصدار احكام معيارية لتحديد قيمته ، لأنه لا يمكن فهم الماضي الا من خلال أحداث الحاضر ومشكلاته^(١) وخاصة أن المؤرخ ليس بالعبد الخاضع للحوادث ، وليس بالسيد المستبد بها بل يجب أن تكون سلته بالحوادث هي صلة الند بالند ، وأن تكون علاقته بها متبادلة بين الماضي والحاضر وخصوصا أن الطبيعة الانسانية كثيرا ما تنطوي على بعض السمات الثابتة .

وفي النهاية يمكن القول بأن المؤرخ الحقيقي انما هو انسان موهوب أوتى من الثقافة والعلم حظا كبيرا مكنته من الفوص في أغوار الماضي ، وشق الطريق داخل منعرجاته ومنحدراته بهدف الوصول الى الحقيقة والصواب .